قضية

يثير وجود المكوّن العربي الإسلامي جدلاً في النقاشات الجارية حول الهوية الإسبانية، بين من يعتبر الأندلس قطعة «نافرة» في التاريخ الوطني الرسمي، مؤكّداً على فكرة «حروب الاسترداد»، وبين من يُدرج الأندلس جزءاً من الهوية الإسبانية، معتبراً الفترة العربية الإسلامية ذروة الحضارة الإسبانية إلى يومنا هذا

الأندلس بين ثنائية الرفض والقبول

سجالات الهوية والتاريخ في إسبانيا

مدريد ـ **جعفر العلوني**

يمثّل وجود المكوّن العربي الإسلامي في التاريخ الإسباني، لا سيما في فترة العصور الوسطى؛ وهي الحقبة التي تُعرف بالعصر الأندلسي، إشكالاً لا يزال حاضراً في النقاشات الثقافية والتاريخية بإسبانيا. مؤخّراً، برز هذا الأمر بشكل واضح في المؤتمر الذي عقدته الأسبوع الماضي في العاصمة الإسبانية، ذات الأصل العربي، مدريد، أكثر من سبعين منظّمة ثقافية وتاريخية، بمبادرة من «معهد الدراسات التاريخية» في «جامعة سان بابلو» الذي يرأسه المؤرّخ ألفونسو بويون، ومنظّمة «Neos» التي يرأسها المؤرّخ ألفونسو بويون.

تحت شعار «التاريخ كي يجمعنا. التاريخ كي يعلّمنا»، أرادت تلك المنظمات والمؤسّسات، الخاصّة في غالبيّتها، مناقشة الهوية التاريخية لإسبانيا، وبعض القضايا التي لا تزال عالقة في المناقشات السياسية والثقافية والاجتماعية بالبلاد، خصوصاً في ظلّ الانقسام السياسي الحاصل بين تكتل اليمين بتنوّعاته، وصولاً إلى حدّ التطرّف، وتكتّل اليسار، بتنوعاته المتناقضة أيضاً، والذي لا يتوقّف عن التشرذم والانقسام.

وعلى الرغم من شعار المؤتمر، الذي قد يبدو للوهلة الأُولى إيجابياً، فإنّ غياب المستعربين الإسبان، وأساتذة الدراسات العربية والإسلامية، والمختصّين في الدراسات الأندلسية عن جلسات المؤتمر، واقتصاره على أساتذة التاريخ وحدهم، كان مؤشّراً إلى توجّه المؤتمر، والمسائل والقضايا التي يتناولها، ومن أية ناحية ومنظور. ذلك أن هناك اختلافاً جذرياً في النظر إلى السردية التاريخية الإسبانية بين أساتذة التاريخ الإسباني في العصور الوسطى، وبين المختصّين في الدراسات العربية والإسلامية.

في العموم، لطالما احتوت السرديات الوطنية على عنصر إشكاليٍّ دائم، فمسألة الهوية فيها تنطوي عادةً على تشويه لجوانب معيّنة من الماضي. في حالة شبه الجزيرة الإيبيرية، يضيف وجود المكوِّن العربي الإسلامي نوعاً من التعقيد والجدل على هذه النقاشات. وهنا يكمن أحد مفاتيح النقاش الأبدي حول الهوية الوطنية الإسبانية. فبعض المؤرّخين، كما هو الحال في المؤتمر، سألوا: ما وضع الأندلس؟ وهل يمكن حقّاً أن ندمج هذه القطعة «النافرة» في تاريخنا؟

من الأفكار التي طُرحت في المؤتمر أنّ الهوية الإسبانية تقوم على ركيزة أساسية تُدعى «حروب الاسترداد». تقوم هذه الفكرة، بشكل جوهري، في مواجهة وجود ما يسمّونه «ضدّ إسبانيا»، في إشارة إلى الأندلس، وهذا جزءٌ من الرواية التقليدية التي سادت السردية الوطنية منذ القرن التاسع عشر، وهي سردية وجدت بيئة حاضنة لها مع انتصار القوى الفاشية وسيطرة الكنيسة، بشكل أو بآخر، على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

لا تزال هذه السردية حاضرةً إلى الآن، ولها من يؤيّدها ويؤكّدها في كتبه وفي الإعلام والصحافة، وهي جزء من سردية قوى اليمين المتطرّفة وأحزاب مثل «فوكس». ضمن هذه السردية، عانت الفترةُ الأندلسيةُ الطويلةُ النفيَ والقطيعةَ، كأنّها عنصرٌ أجنبيٌّ عن الجوهر التاريخي الإسباني. وبالفعل، بمراجعة سريعة لكتب التاريخ الإسبانية، سنرى أنّ حقبةً امتدّت على مدى ثمانية قرون بالكاد تحضر في صفحة أو صفحتَين، وتحت عنوان «الغزو الإسلامي» لإسبانيا، أو تُلحق بفصل طويل عنوانه «حروب الاسترداد».

هكذا بُنيت الهوية الإسبانية، على أساس تدمير أو إنكار فترة الوجود العربي الإسلامي الطويل فيها. وقد بدا ذلك واضحاً في المؤتمر استناداً إلى عددٍ من الأفكار التي وردت على لسان أستاذ التاريخ رافائيل سانشيز ساوز، والذي سبق أن عبّر عنها في كتابه «الأندلس والصليب»، ويمكن تلخيصها على الشكل الآتي:

- استناداً إلى كتب التاريخ الإسبانية والمناهج المدرسية، فإنّ قوّات الخلافة الأموية، في عام 711، عبرت مضيقَ جبل طارق وبدأت غزواً عسكريّاً لشبه الجزيرة الإيبيرية كان نتيجة الحملة العسكرية التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية مع بداية القرن السابع؛ بهدف نشر الدين الإسلامي.

- غزت القوّات المسلمة شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) كجزءٍ من حرب مقدَّسة سعت فيها إلى نشر الدين الإسلامي وفرضه على سكّان المنطقة الذين كانوا يعتنقون الدين المسيحي.

- هزمت القوّاتُ الأمويّةُ المملكةَ القوطية، وبسطت سيطرتها على جزء كبير من إسبانيا، مقلّصةً وجود الممالك المسيحية إلى شريط يمتد شمالاً على مساحة ضيّقة في الجبال الأسترية.

- جذع الهوية الإسبانية الذي يُبرّر اندماجها الكامل في الحضارة الأوروبية رومانيّ ومسيحيٌّ. وهذا «الطُّعم» الأندلسي تعايشَ داخل الثقافة الإسبانية دون «أن يفاجئ أحداً».

- مع تغيُّر الوضع التاريخي والجغرافي والسياسي، لا معنى لهذا «التوكيد الضحية» للفترة الأندلسية، لأنّه يتناقض مع فكرة إسبانيا وتاريخها.

- الركائز الكبرى للهوية الوطنية الإسبانية هي العالم الكلاسيكي الأوروبي والمسيحي. وهذا لا يعني أنّها ضدّ الإسلام. فلا يمكن بناء ثقافة ذات بعد عالمي إذا كانت ضدّ ثقافة أُخرى. لكن السؤال: هل يمكن إدراج الإسلام ضمن هذا التقليد الأوروبي الكلاسيكي والمسيحي، وهل يحترمه حقّاً؟

- تُبنى الهويات على التباين والإقصاء، وفي حالة إسبانيا، فإنّ التأريخ الليبرالي، منذ القرن التاسع عشر، طوّر سرديته عن الهوية على أساس إنكار الفترة الإسلامية. ولكن صُحِّحت هذه السردية من خلال تسمية «إسبانيا المسلمة» من قبل التأريخ الرسمي. وهذا، بلا شك، يُعطي بعداً أكثر تكاملاً للهوية الإسبانية. لكن لا يزال غريباً داخل نموذج الرؤية القومية الإسبانية.

- هناك صورة وهمية عن «إسبانيا المسلمة»، وهي مجرّد أسطورة مبنية على «أحلام اليقظة» و«التزييف المقصود».

- الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية يعامَل معاملة الأسطورة. موسى بن نصير وطارق بن زياد لم يكونا إلّا قائدَين عسكريَّين دخلا الجنوب الإسباني وارتكبا الفظائع.

مع انتهاء جلسات المؤتمر التي لم تتناول موضوع المكوّن الإسلامي العربي في الهوية الإسبانية فحسب، بل الجمهورية الإسبانية الأُولى، والانتقال الديمقراطي، وقانون الذاكرة الديمقراطية، وغيرها من القضايا، وقّع المشاركون على بيان يؤكّد على «أهمية التاريخ من أجل التعلُّم، خصوصاً أنّ تاريخ إسبانيا مليء، أكثر من أيّ بلد أوروبي آخر، بالصراعات والحروب». أكّد البيان أيضاً على ضرورة «توحيد مناهج التاريخ وفق الأفكار المطروحة في المؤتمر، بدلاً من أن يكون هناك 17 منهاجاً مختلفاً»!

لم يكن من بين المشاركين في المؤتمر من يملك تصوّراً مختلفاً عن معنى وجود المكوّن العربي الإسلامي في التاريخ الإسباني خارج تلك الأفكار التي طُرحت، والتي يمكن تصنيفها في غالبيتها بأنها ذات طابع وطني يميني. ورغم شعار المؤتمر، الذي يبدو للوهلة الأُولى أنّه جامعٌ ومنفتح ويقبل التنوّع الغني في التاريخ الإسباني، تمّ التأكيد على فكرة رفض الآخر الموجود في السردية التاريخية الإسبانية.

ربما من هنا نستطيع أن نفهم غياب المستعربين الإسبان والمختصّين في الدراسات العربية - الإسلامية والأندلسية عن المؤتمر، ذلك أنّهم من أبرز المدافعين عن المكوّن العربي الإسلامي في الهوية الإسبانية، ولطالما طرحوا أفكاراً، قد يكون من المفيد عرضها، لدحض الأفكار التي طُرحت في المؤتمر.

- يؤكّد معظم هؤلاء المختصّين بالتاريخ العربي والثقافة العربية - الإسلامية، لا سيما في فترة العصور الوسطى، أنّ كلّ من درس وقرأ التاريخ في إسبانيا، يعرف قصّة «الغزو الإسلامي»! لكنّ الحقيقة هي أنّ المصادر التاريخية ليست واضحة. فالنصوص الإسلامية التي تتناول «الغزو» (إسبانيّاً)، والفتح (عربيّاً)، تأخّرت مدّة قرن ونصف القرن، والمصدر اللاتيني الوحيد، مجهول المؤلّف، ويحمل عنوان «تأريخ عام 754».

تُشكّل الأندلس ذروة الحضارة في التاريخ الإسباني

حقبةٌ امتدت ثمانية قرون تُلخّص في صفحة أو صفحتَين

من الاحتفالات الرسمية بـ«استعادة غرناطة»، والتي تُقام سنوياً في «ساحة إيزابيل الكاثوليكية» بالمدينة، 2 كانون الثاني/ يناير 2023

تصويب

عُمْر الفلسطيني

باسم النبريص

عُمْر الفلسطيني، حتى لو كان ابن مليونير، ما حصل على أمل بلا بقع.
يحدث هذا، طوال قرن من الزمن ونيّف، لأنّه لا يوجد شيء مبتذَل، فاجر وقاس وسادي، مثل تطوُّر الإمبرياليات في غرب الكوكب.
يُمكننا، إذن، أن نسأل أنفسنا عن معنى حياتنا الجديدة في الغرب. الجواب بسيط للغاية: لم يكن لنا من حياة آمنة في الشرق.
وهنا، ما بين النقيّ والمصطنع، يمكننا إضافة جهاز نقدي شامل، مع الملاحظات التي تُرشدنا عبر عالمٍ من المجهول. مع يقين مطلقٍ ومسبق، ألّا إيثاكا في القارّة العجوز.
إنّ الإسراع في العبور من ضفّة إلى ضفّة له عواقب وخيمة، خاصّة إن كان العابر فوق سنّ العشرين.
فيكفي أن تحيا عشرين سنة فقط، في أيّ قطعة من الأرض، كي تصبح هذه إيثاكاك، وكي تذهب معك أينما ذهبت وحيثما حللت.
كلُّ لاجئ راشد يعرف أنّ بلاده الأُولى، في رحلته إلى إيثاكا الموهومة، ستكون دائماً في الأفق، وأنّه بدونها لم يكن ليبدأ الرحلة أبداً، وأنّه من خلال طبعه وطبيعته سيظلّ يحنّ إليها، مهما كانت فقيرة وخاربة، للأبد.
حدث هذا وسيحدث دائماً، مع أنّ بعض الشعراء يُعلّمنا ألّا نفعل ذلك.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

وراء كلّ حدود

في الأندلس ما يتخطّى كلّ هوية وإرث، ما يتخطّى كلّ حدود وأيديولوجيات وسرديات وطنية. وهذا العمل خُلق جمعاً لا فرداً. إنّه ليس عربياً، وليس إسبانياً. إنه أندلسي لا غير. من هنا، لا بدّ من إعادة النظر إلى الأندلس بعيداً عن السرديات الوطنية. ربّما في هذا يكمن سبب العجز عن خلق أنموذج للحضارة الأندلسية في البلاد العربية؛ لأنّنا لم نستطع أن نُخرجها من الرؤية التقليدية للماضي.

تفنيد أطروحة «الغزو الإسلامي» من وجهة نظر علمية

كيف يفهم المستعربون الإسبان الآخر العربي؟

ثمّة خلط بين ما هو عربي وما هو إسلامي، يرجع إلى إسقاط أيديولوجي متعمّد على السردية التاريخية. يفنّد بعض المستعربين الإسبان هذه الخلط وجذوره

من جلسات المؤتمر

يمكن فهم غياب المستعربين الإسبان والمختصّين بالدراسات العربية- الإسلامية والأندلسية عن المؤتمر الذي عُقد الأسبوع الماضي بكونهم من أبرز المدافعين عن المكوّن العربي الإسلامي في الهوية الإسبانية، ولطالما طرحوا أفكاراً، قد يكون من المفيد عرضها، لدحض الأفكار التي طرحت في المؤتمر:

- يزعم كلّ من درس وقرأ التاريخ في إسبانيا أنّه يعرف قصّة «الغزو الإسلامي»! لكنّ الحقيقة هي أنّ المصادر التاريخية ليست واضحة. فالنصوص الإسلامية التي تتناول «الغزو» (إسبانيّاً)، والفتح (عربيّاً)، تأخّرت مدّة قرن ونصف القرن، والمصدر اللاتيني الوحيد، مجهول المؤلّف، ويحمل عنوان «تأريخ عام 754».

- ما حدث في شبه الجزيرة العربية لم يكن غزواً ناتجاً من حرب مقدّسة؛ بل كان سلسلة من موجات الهجرة التي ولّدت عملية تعريب للمنطقة. من أبرز المدافعين عن هذه الفكرة حالياً هو إيميليو فيرين، وكتابه «عندما كنّا عرباً»، الذي تُرجم مؤخّراً إلى العربية، هو تأكيد على ذلك. وهذه الفكرة هي امتداد لسردية في مدرسة الاستعراب الإسباني بدأت مع إيميليو غارسيا غوميز، الذي كان من أبرز المشددين على ضرورة الاعتراف بالمكوّن الأندلسي جزءاً من الهوية الإسبانية.

- من الأفكار الأُخرى التي يفنّدونها هي عدم وجود تاريخ إسباني خارج الرؤية القومية الكاثوليكية. هذا التاريخ قائم على فكرة أساسها الغزو العربي الإسلامي، وهذا من وجهة نظر تاريخية غير دقيق.

- تَحوّل تاريخ إسبانيا إلى أداة لخدمة مصالح وتيارات سياسية محافظة. وقام هذا التيار باحتكار تاريخ إسبانيا وتقديم رواية واحدة لا غير. كما تدعم هذه التيارات السياسية المحافظة فكرة أنّ المسيحية مثّلت التحضّر والتقدّم، في حين جسّد الإسلام التخلُّف. ولكن هذا، تاريخياً، ليس له أساس من الحقيقة. إضافة إلى ذلك كلّه، كانت الكنيسة في إسبانيا، تاريخيّاً، العنصر الذي أعاقَ التطوّر والتقدّم، وفقاً لهم.

- المسألة ليست صراع هويات، بل كيف نخلق وعياً إزاء التاريخ وكيف نفهم الآخر الذي أسهم فيه عبر منجزات حضارية كانت الحجر الأساس، ليس للحضارة الإسبانية فحسب، بل للحضارة الأوروبية كلّها.

- لا يمكن فهم الحاضر والنظر إلى المستقبل دون فهم عميق للماضي. وهذا يقتضي الاعتراف بالأندلس جزءاً من الهوية الإسبانية.

- ثمّة خلط بين ما هو عربي وما هو إسلامي. وهذا خطأ كبير يرجع إلى إسقاط أيديولوجي. يظهر هذا واضحاً داخل السردية الكاثوليكية. فبعض المؤرّخين المحافظين يتحدّثون عن «غزو إسلامي». أمّا البعض الآخر فيتحدّث عن «غزوات عربية». وهذا يعود إلى جذور غارقة في أيديولوجية ما يُسمى «الاسترداد».

جعفر...

إطلالة

امتحان غزّة

ممدوح عزام

تبدو غزّة اليوم كاشفاً عميقاً لمسألة العلاقة بين الأدب العربي، بل بين العرب قاطبة، وبين الانتشار العالمي لثقافتهم. ثمّة أجوبة جاهزة تزعم أنّ الأدب العربي يتحمّل المسؤولية، بسبب هشاشة الرواية والقصّة والمسرح والشعر، وهو جوابٌ ينمّ عن الجهل من جهة، وعن التخاذل والشعور بالدونية من جهة ثانية. فقد رُفض نجيب محفوظ على الرغم من نيله «جائزة نوبل للآداب»، ولم يُستقبل أيُّ كاتب عربيّ آخر، بغضّ النظر عن موضوع الترجمة الذي نتفاخر به أحياناً، ولدى كثير من الكتّاب العرب ما يؤهّلهم لمكانة أدبيّة تُضاهي أيّ كاتب من الغرب، أو من أميركا اللاتينية، أو من أفريقيا، أو آسيا.

لكنّ السياسة الغربية والإعلام الغربي، وقسماً كبيراً من المثقّفين في الغرب، كان همّهم الرئيس التخلّص من عقدة الذنب التي قاموا بتضخيمها هُم أنفسهم، وبمساعدة حثيثة من الصهيونية، وبدا لهم جميعاً أنّ العائق الرئيسي، أو المانع، أو العدوّ الذي يمنعهم، أو يُعرقل سعيهم للتخلّص من ذنوبهم، هو العربي.

ولقد أظهروا هذا الموقف بلا تردّد أو خجل في الأشهر الثمانية الماضية التي بدأت فيها «إسرائيل» حربها ضدَّ غزة والفلسطينيّين، بمن فيهم كتّابٌ مشهورون، آخرهم الكاتبة الحاصلة على «جائزة نوبل» هيرتا مولر. وهي أكثرهم «جرأة» في الاعتراف بهذه الحقيقة.

والحقيقة هي أنّ الثقافة العربية عموماً، باستثناء بعض النزعات التي ترغب في القطيعة والعزلة، لم تكن منغلقة أو عنصرية تجاه أيٍّ من الثقافات الأُخرى في عالمنا. ودون أن نحسب هنا الكمية، فالترجمة إلى العربية هي في حدودها الدنيا، ولكنّ طبيعة الترجمة تقول إنّ ثقافتنا لم تقاطع غالباً أية ثقافة، ولم تكن لديها أجندة جماعية معادية للثقافة الإنكليزية مثلاً، في حين كانت بريطانيا هي المؤسّس للكيان الصهيوني في فلسطين.

كما لم تُعلن العداء للثقافة الأميركية التي تدعم «إسرائيل» بلا حساب، ولا غيرها من الثقافات، ولم يُسمع عداءٌ لأيّ مكوِّن ثقافيّ في الأدب والفنّ والفلسفة وغيرها، ومن الملاحَظ أنّ الثقافة الأوروبية في هذا النهج ترفض أن تحاور الثقافة العربية، وليس العكس كما يُشاع. والظاهر اليوم أنّ مصطلح المركزية الأوروبية كان مغشوشاً، أو أنّه المصطلح الذي أردنا نحن أن نناقشه، في ظلّ اختباء السياسيّين والمفكّرين الأوروبيّين وراءه، وتفضيلهم تجاهل العرب والثقافة العربية والأدب العربي، خوفاً من أن يتعطّل سعيهم لتدبير مكانة لليهود، والتخلّص من العبء «الأخلاقي» الذي نجم عن اضطهادهم لهم. ولهذا سوّقوا لفكرة «إسرائيل الديمقراطية»، وناصروا بلا تحفّظ أنظمة الطغيان في البلدان العربية، ومنعوا الحقيقة التاريخية عن شعوبهم في التعليم والصحافة والإعلام. وما زال قادة الغرب يرفضون التعبير عن أيّ شكل من أشكال التضامن الإنساني المحض مع الفلسطينيين، بينما لا يزال القسم المهيمن في الثقافة الغربية يرفض الحوار مع التيارات التقدّمية والإنسانية في ثقافتنا العربية، ويواظب على التشهير بالنزعة المتعصّبة ليصمنا جميعاً بها.

وفي غزّة لم يعُد الغش ممكناً، باتت المصطلحات وراء ظهور قادة الغرب، وصار تأييد «إسرائيل» والصهاينة هو المبدأ، ولهذا ترى منهم هذا التجاهُل، الذي نصِفه بالمروّع والمُخجل، للمذبحة التي يرتكبها الصهاينة.

(روائي من سورية)

فعاليات

حتى السادس والعشرين من حزيران/ يونيو الماضي، تعرض منصّة «أفلامُنا» الرقمية فيلماً وثائقياً بعنوان **باشوف النجوم في عزّ الظهر** (2005)، للمُخرج المغربي **سعيد ناجي فاروقي**. يوثّق الشريط لرحلة شاب مغربي من مدينة طنجة يُدعى **عبد الفتّاح** عبْر مضيق جبل طارق للدخول بشكل غير قانوني إلى إسبانيا.

في «البيت العربي» بمدريد، يستمرّ، حتى الثالث والعشرين من حزيران/ يونيو الجاري، معرض جماعي بعنوان **اضطرابات على نهر النيل: الفنّ الحديث والمُعاصر في السودان**. يضمّ المعرض، الذي يشرف عليه الفنّانان السوداني **رحيم شدّاد** والبرتغالي **أنطونيو بينتو ريبيرو**، أعمال أحد عشر فنّاناً سودانياً تعكس الوضع المعقّد في السودان، إضافةً إلى تراثه الثقافي.

يستضيف «معهد العالم العربي» في باريس، عند الرابعة والنصف من مساء التاسع والعشرين من الشهر الجاري، الشاعر اللبناني **عيسى مخلوف** (الصورة)، في لقاء يُقدّمه الكاتب السوري فاروق مردم بك، ويُتبَع بقراءة لقصائده باللغتين العربية والفرنسية، مع مرافقة موسيقية من لولا ماليك على آلة التشيللو.

حتى السابع عشر من آب/ أغسطس المقبل، يستمرّ، في «مطافئ/ مقرّ الفنّانين» بالدوحة، معرض **مشهد أثيري** للقطرية **الخزامى الحرمي** والفرنسي **غيوم روسيري**. يقدّم المعرض تجربة حسّية تجمع بين عروض الفيديو للمناظر الطبيعية الصحراوية وفنّ الخط، ومناظر صوتية مستمدّة من التسجيلات الميدانية.